

مقدمة

ليست مصادفة أن تسمى السورة التي بدأت بالحديث حول الزنا **لعلها** وحدوده في حالاته المختلفة بسورة «النور». وأسماء السور - على ما نعلم - أمر توقيفي، وربما كان في ذلك إشارة لطيفة، إلى أن مثل هذه القضايا الخطيرة، التي أتى ذكرها في سورة «النور»، لا بأس من مناقشتها في النور، بوضوح تام، فالجهل والظلام أعدى أعداء الإنسان، وقديما قالوا: الإنسان عدو ما يجهل، وقد ورد أيضا من مأثور قوله - صلى الله عليه وسلم: «... عرفت فالزم».

وقد تحدث القرآن الكريم عن الذكر وعن الأنثى، وعن بعض الأمور الجنسية الطبيعية، كالزواج والتناسل والرضاع وضوابطها، مثل متى يجب تجنب الاتصال الجنسي في الزواج؟ وما إلى ذلك من موضوعات وقضايا. كما تحدث أيضا عن بعض العلاقات الجنسية الشاذة، كالزنا واللواط. كما تحدث عن بعض الأمور الشرعية والاجتماعية الأخرى التي تهم الجنسين والمجتمع كله، كتنظيم الميراث واللباس والاختلاط والتزاور وغيرها من علاقات وأمور كثيرة.

يقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ

أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ
 فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ الروم: ٢١. فضلا عن أن الزواج
 هو الوسيلة الشرعية والطبيعية، لحفظ النوع من الانقطاع والانقراض،
 فإنه آية من آيات الله التي تهدف إلى السكن؛ وإلى إشاعة جو من المودة
 والرحمة، التي لولاها لاستحالت الحياة إلى جحيم لا يطاق، وهذا
 أمر يدعو إلى التأمل والتدبر والتفكير. والله تعالى حينما قال: ﴿وَمِنْ
 كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿١١﴾ الذاريات: ٤٩، يؤكد سبحانه
 الزوجية في جميع الخلق في مقابل وحدانية الخالق جل وعلا، وجعل
 من ذلك أمرا يستوجب الاسترجاع والتذكر للتأمل والتفكير والتدبر، كما
 هو أيضا مدعاة لتأكيد عدم المثلية أو التشابه بين الخالق والمخلوق، فهو
 القائل أيضا: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ﴿١١﴾ الشورى: ١١.
 وكما تشير الآية الكريمة فإن هذه الزوجية تعم جميع المخلوقات بدءا
 من الإنسان أكرم مخلوق إلى أصغر الجسيمات الذرية- ما اكتشف منها
 وما لا يزال في طي الخفاء- مرورا بعالم الحيوان وعالم النبات بل وعالم
 الجماد أيضا من الذرة إلى المجرة، بل وفي الطاقة والمادة، وفي الكهرباء:
 في الشحنات الموجبة والسالبة، إلى غير ذلك من مفردات الكون والوجود.
 فالزوجية إذن هي سنة الله في خلقه، ولن تجد لسنة تبديلا.

كما أفاض الرسول- صلى الله عليه وسلم- في الحديث عن
 العلاقات الزوجية بكل دقائقها وتفصيلاتها، وما يدور حولها من

أمور، إما تعليماً للناس كثيراً من أمور دينهم ودنياهم مما يتعلق بهذه الموضوعات، وإما رداً على تساؤلات من الصحابة والصحابيات - رضوان الله عليهم جميعاً.

والواقع أن ما حفزنى إلى تأليف هذا الكتاب، من جانب آخر، هو النقص الشديد فى الكتب الجادة، التى تعالج مثل هذه الموضوعات، بمنهج علمى بعيد عن الإثارة والدعاية، أو بهدف التربيح أو الإفساد! وإذا وجدت بعض الكتب، التى تعالج فصلاً أو فصلين، لضرورة ذلك فى خدمة الموضوع الأساسى للكتاب، فإنما يكون بالقدر الذى يسمح بذلك فحسب! وقلما تجد كتاباً يتناول هذه الموضوعات كلها على صعيد واحد. وإذا تفرس الناقد فيها ملياً، فسوف يجد ارتباطاً وثيقاً بينها فى المضمون والترتيب أيضاً، وربما لا نستطيع حذف بعضها إن أردنا ذلك، حيث يكمل بعضها البعض الآخر. فوسائل منع الحمل لا يمكن مناقشتها دون التعرض لتشريح وفسولوجيا جهازى التناسل فى كل من الذكر والأنثى. وبالمثل فإن معالجة الأمراض التناسلية مرتبطة بمناقشة موضوع البغاء، الأمر الذى يفضى إلى معالجة ارتباط ذلك بالجوانب السيكولوجية والاقتصادية!

فالكتاب من هذه الزاوية يمثل وحدة واحدة، تبين مدى أهمية هذه القضية برمتها، ومدى ما تحقق من إنجازات على أيدي العلماء والأطباء المشتغلين بهذا العلم (Sexology أى علم الجنس)، الذى تُوَلِّفُ فيه الآن

المنطولات، والذي يُدرّسُ في أروقة كليات الطب والعلوم، وغيرها من كليات ومعاهد معنية بهذه الموضوعات العلمية، التي ترتبط بالحياة والاقتصاد، بل وبمستقبل الإنسان بشكل عام. ولذا فإنه من المناسب، بل من الضروري أن يعرف كل رجل وكل امرأة، هذه المعلومات العلمية والطبية الموثقة؛ لارتباطها بجانب هام من حياتهم. فالكتاب مقدمة لا غنى عنها لفهمها والتعامل معها في ظل هذا الفهم، وليس بناء على مفاهيم خاطئة أو مشوشة. وهو من ناحية أخرى أكثر أهمية، خصوصا بالنسبة لأولئك الذين يبحثون عن حلول لمشاكلهم الجنسية، عند المتخصصين، من الأطباء والعالجين، على الأقل لمعرفة إلى مَنْ مِنْ هؤلاء يجب عليهم التوجه، لسؤاله النصيحة والمشورة أو طلب العلاج. فالتداوى أمر مطلوب، ولا يتنافى مع التوكل على الله تعالى، وقد أمر به النبي صلى الله عليه وسلم، حيث يُروى عن هلال بن يسار - رضى الله عنه - قال: دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على مريض يعودُه فقال: «أرسلوا إلى الطبيب». فقال له قائل: وأنت تقول هذا يا رسول الله؟ قال: نعم»^(١). بل وكان صلى الله عليه وسلم يفاضل بين الأطباء فى الكفاءة والتخصص أيضا. فعن زيد بن أسلم - رضى الله عنهما - أن رجلا أصابه جرح، فاحتقن الدم، وأن رسول الله دعا برجلين: من بنى

(١) أخرجه أحمد.

أنمار، فقال أيكما أطب؟ فقال رجل: أفي الطب خير؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «الذي أنزل الداء أنزل الدواء»^(١). فالنبي - صلى الله عليه وسلم أراد أن يختار منهما من هو أكثر خبرة بهذا المرض^(٢). وهذا هو هدفنا الأساسي من هذا الكتاب، المعرفة التي تقود إلى عدم الخوف، بل تقود إلى الإقبال على الحياة السعيدة، التي تهدف إلى إيجاد المواطن الصالح القوي، وهو أحد معايير التفاضل في الإسلام، حيث أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف...».

أما بالنسبة لشبابنا وفتياتنا، فإن الخطوة الأولى والأهم في تربيتهم الصحية السليمة، هي تحصيل المعرفة، من مصادرها الموثقة؛ لتصحيح مفاهيمهم حول هذه الأمور الحياتية والبيولوجية الهامة، وبناء عليه تصحيح السلوك المعوج لبعضهم؛ وذلك بإرساء قواعد صحيحة للسلوك الصحي السوي، بعيدا عن المفاهيم الخاطئة والسلوكيات الشاذة والمریضة.

وإذا عرفنا أن معطيات العلم الحديث، تؤكد أن الصحة والحياة إنما يتوقفان على التفاعل الحيوي بين كل من البيئة والوراثة والسلوك،

(١) رواه مالك في الموطأ.

(٢) د. إبراهيم الصياد (١٩٨٧). المدخل الإسلامي للطب. سلسلة مجمع البحوث

الإسلامية. السنة ١٨، الكتاب ٤.

أدركنا جليا أن العمل على تحسين الأحوال البيئية، والصحية والغذائية، والسلوكية، والاجتماعية التي يعيش في إطارها الإنسان، يمكن أن يسهم كثيرا في الاستفادة المثلى للأفراد، بما وهبهم الله من ثروة وراثية، أيا ما كانت قيمتها، عالية أو متواضعة.

وأخيرا، فإننا كثيرا ما نصادف أسئلة، تأتي على السنة الصغار والكبار، منها:

من أين جننا؟ وكيف نشأنا؟

وتُرى من يكون المسئول عن تحديد نوع (جنس) الجنين؟ الأب أو الأم؟

ومنها أيضا: لماذا يُحذرنا العلم من زواج الأقارب؟

وما أهمية الفحوص الطبية لكل من الزوجين، قبل الزواج، فيما يختص ببعض الأمور: كفصائل الدم والأمراض التناسلية والوراثية وغيرها؟

ومنها كذلك: ماذا نعني بالختان؟ وهل هناك أية فائدة له؟ وهل الخفض فرض ديني؟

ولماذا حذرنا الشرع من اعتزال النساء في أثناء الدورة الحيضية؟ وما هي الوسائل الجيدة التي يمكن أن تستعين بها الزوجة على تنظيم نسلها؟

ولماذا لا يصح أن تُمارس العلاقات الجنسية خارج نطاق الزواج؟ وما هي أسباب العقم؟

فبذا الكتاب هو محاولة للإجابة عن هذه الأسئلة وغيرها، كما هو أيضا محاولة للاقتراب من موضوعات ظلت لأزمان طويلة من المحرمات التي يخشى الجميع الاقتراب منها أو الحديث عنها إلا في الخفاء، الذي عادة ما تختلط الحقائق فيه بالخرافات والأساطير، وهذا منبع خطير لشر مستطير، لا يدرؤه إلا الحديث بلغة العلم وروحه الوثابة، ففي ضوئه الغامر، تتبدد أمواج الجهل وظلماته، وتتأصل مفاهيم الصحة والسلامة من كل شر وجهل ومرض، ولا شك في أن هذا جزء هام من رسالة الكاتب والعالم، إن لم يسأله عنه قومه فسيُسأل عنه يوم القيامة.

والله الموفق، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

المؤلف